

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثالثة - العدد العاشر - صيف ١٣٩٢ش / حزيران ٢٠١٣م

ص ٩١ - ١١١

الرتاء في شعر الشريف الرضى

محمد إبراهيم خليفة الشوشترى*

محمد حسن امرأىي**

الملخص

استطاع الشريف الرضى بشاعريته الفذة القوية، وبلاغته الأصيلية، وقدرته الباهرة أن يبرز في مقدمة الفحول من الشعراء، لاسيما في الرثاء والبكاء على الأهل، والأقارب، والأحباب ووصف تقلبات الزمان، وظهرت قصائده في الرثاء مليئةً بالمشاعر الجياشة. وجدير بالذكر أن قصائده في رثاء الحسين(ع) مثال كامل احتذاه الشعراء من بعده لبيان مظلومية أهل البيت(ع) وفاجعتهم بمقتل الإمام الحسين(ع) وكانوا يحفظون وينشدون أشعاره الرثائية. إنَّ مرأىي الشريف الرضى -مع قلّتها- جعلته بارزاً بين معاصريه وشعراء الشيعة. تدرس هذه المقالة الرثاء عند الشريف الرضى وتثبت أن الرضى من أحسن شعراء الرثاء بلا منازع في العصر العباسي، وأحسن تصرفاً فيه.

الكلمات الدليلية: الشعر العربي القديم، العصر العباسي، الرثاء، الشريف الرضى.

*. جامعة الشهيد بهشتي، طهران، إيران. (أستاذ مشارك)

** خريج أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، طهران، إيران. m.h.amra@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصري

تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٢ش

تاريخ الوصول: ١٣٩١/١١/٢١ش

www.SID.ir

المقدمة

قبل أن نتوغل في موضوع البحث جدير بالذكر والتنويه أن نقول إنه شهد الأدب العربي في عصوره المختلفة، العديد من الشعراء والشخصيات اللامعة فكان لهم دورهم وتأثيرهم في آفاق الأدب العربي وكانت إحدى هذه الشخصيات والشعراء الكبار في العصر العباسي الثاني (٣٥٩-٤٠٦) العالم الأريب والفاضل الأديب الشريف الرضى الذى امتاز بآثاره القيمة العلمية والأدبية، وبمكائنه السامية. وهذا ما دفعنا في هذه المقالة إلى دراسة الرثاء في شعر الشريف الرضى من خلال ديوانه معتقدين «أن الرثاء ينظمه الشاعر على الوفاء فيقضى بشعره حقوقاً سالفةً بينه وبين الميت أو يعبر الشاعر برثائه عن مشاعره الحزينة التى أحس بها عندما أصابت المنية من يكون عزيزاً ومحبوباً لديه.» (الرافعى، ١٩٧٤م: ١٠٧/٣) فاختيارنا هذه المقالة، يرجع إلى السببين الرئيسيين أولاً: لأجل شخصية الشريف الرضى الذى تميز بالتقوى، والورع، والمنزلة الدينية، والاجتماعية، والسياسية بسبب نشأته الأسرية العظيمة الدينية، ثانياً: اشتهاره بأشعار الرثاء أكثر من كل أغراضه الشعرية بحيث نستطيع أن نسميه شاعر الرثاء بلا منازع، حيث انتشر صيته فيه.

تحتوى هذه المقالة على ثلاثة محاور: يتعلق المحور الأول بحياة الشريف الرضى وأدبه بصورة موجزة وذلك للتعرف على الشاعر وشخصيته فى عصره بشكل مختصر. و يختص المحور الثانى بالرثاء لغة واصطلاحاً. والمحور الثالث يتطرق إلى الرثاء عند الشريف الرضى وأقسامه وكيفية استخدامه.

ترجمته وآفاقه العلمية والأدبية

«هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام، المعروف بالموسوى نقيب الطالبين وكان يلقب بالرّضى ذا الحسين. (الثعالبي، ١٩٨٣م: ١٥٥/٣) لقبه بهاء الدولة بن بويه بالطاهر الأوحى، والطاهر ذى المناقب. (ابن أبى الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١) وكان يتولى نقابة الطالبيين، وإمارة الحج، والنظر فى المظالم. (ابن الأثير، ١٩٦٦م: ٤٨/٢، ابن الجوزى، ١٩٣٩م: ٢٤٧) وأمّه فاطمة بنت حسين بن أبى محمد الحسين الأطروش

بن علي بن حسن بن علي بن عمر بن الإمام علي بن أبي طالب (ع). (ابن أبي الحديد، ١٩٦٥م: ٣٢/١) وهي امرأة جلييلة القدر وقد أَلَفَ الشيخ المفيد (ره) كتابه أحكام النساء لِأَنَّهَا أَوْصَتْهُ بِهِ وَبُنَيْدَ الشَّرِيفِ فِي شَأْنِهَا (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٩/١):

لَوْ كَانَ مِثْلَكَ كُلُّ أُمَّ بَرَةٍ غَنَى الْبُنُونَ بِهَا عَنِ الْآبَاءِ

انحدر الشريف الرضى من المحتد الأصيل، ينتهي من أب إلى الإمام موسى الكاظم (ع) ومن أم إلى الإمام الحسين بن علي (ع) وكان علوى النسبين ولذلك لقبه بهاء الدولة بن بويه بالرضى ذا الحسينين وذا المنقبتين. (ابن أبي الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١)

كان مولده ببغداد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة. (الثعالبي، ١٩٨٣م: ١٥٥/٣) وكانت ولادته خلال فترة المطيع لله وحكم عز الدولة البويهى. (ابن الأثير، ١٩٦٦م: ١٠٣/٥) نظم السيد الشريف الرضى الشعر وعمره عشر سنوات. (الثعالبي، ١٩٨٣م: ١٣٦/٣) جاء محققاً في سماء الشعر محرراً قصب السبق وأجاد في جميع أغراض الشعر العربى وهذا يدل على غزارة مادته. كان ينظم قصائده لمنحة نفسانية قلما تؤثر بها العوامل الخارجية. كان أبوه جليل القدر عظيم المنزلة في دولة بنى العباس ودولة بنى بويه وكان من الأجلء وبهذا توفرت للشريف أسباب النعمة وطلب العلم، فكان لا بد له من أن يتعلم أنواع المعارف منذ صغره، كما درس اللغة على يد ابن جنى والفقهاء على يد شيخ الإمامية وعالمهما الشيخ المفيد. (ابن أبي الحديد، ١٩٦٥م: ١٣/١-١٤) وأحضر الشريف الرضى إلى ابن السيرافى النحو وهو طفل لم يبلغ سنين ولقنه النحو. (ابن خلكان، لاتا: ٤٥/٤) ولذلك تمكن الشريف من استيعاب العلوم العربية، وعلوم البلاغة، والأدب، والفقهاء، والكلام، والتفسير، والحديث بكاملها في مدة وجيزة، وينطلق إلى البحث، والتدريس، وقول الشعر وهو في أخريات العشر الأول من عمره. يقول الثعالبي عنه: «ابتداءً يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل.» (الثعالبي، ١٩٨٣م: ١٣٦/٣)

جدير بالذكر أن نشير إلى الاغتراب كعنصر أساسى للثناء في حياة الرضى «كان أبوه نقيب الأشراف الطالبين فصارت إليه النقابة وأبوه حنى وتولى معها إمارة الحج والمظالم؛ وهو أول طالبى جُعِلَ عليه السواد.» (البستاقى، ١٩٨٦م: ١٧٧/٣) لعل هذه الأمور في حياة الرضى أدت إلى حسادة ونمامة الحساد وبالتالي أدت إلى اغترابه، إلى

حد يشكو هو نفسه من حياته ويقول (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٥٨/١):

وَمَا لِي طَوَّلَ الدَّهْرَ أَمْشَى كَأَنِّي لِفَضْلِي فِي هَذَا الزَّمَانِ غَرِيبٌ

ترتبط هذه الحسادة في بعض الأحيان بأقربائه حتى لا يبقى أقرباؤه بلا نصيب من هذه الحسادة، و الشريف الرضى في بعض أشعاره يشير إلى هذا الحقد والكرهية بينه وبين أخيه (المصدر نفسه: ٩٦/١):

وَأَخٌ حُرِّمَتْ الْوُدُّ مِنْهُ وَ بَيْنَنَا نَسَبٌ قُرَابٌ

في نهاية المطاف «تُوِّفَى الشَّريف الرضى يوم الأحد السادس من المحرم سنة ست وأربعمائة ودفن في داره بمسجد الأنباريين إحدى ضواحي الكرخ "الكاظمية" اليوم. (عمر فروخ، ١٩٧٩م: ٥٩/٣) عندما مات الشريف الرضى رثاه كثير من الشعراء، ولكن أول شاعر رثاه هو أخوه السيد المرتضى الذى نظم مرثية الفراق بهذا المطلع (الشريف الرضى، ١٩٩٧م: ١٣/٢):

يَا لِلرِّجَالِ لِفُجْعَةٍ جَدَّمَتْ يَدِي وَوَدَدْتُ لَوْ ذَهَبْتُ عَلَى بِرَاسِي

ورثاه تلميذه مهيار الديلمى بقصيدة يحفظها أكثر الأدباء (زكى مبارك، ١٩٣٨م:

٢٣١/٢؛ والشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٤٩/١):

أَفْرِيشُ لَا لِمِ أَرَاكَ وَلَا يَدٍ فَتَوَاكَلِي، غَاضَ النَّدى وَخَلَا النَّدى

إن شعر الشريف الرضى يُعطينا صورة صادقة لسلمات شخصيته من ناحية وسمات عصره من ناحية أخرى بحيث إن أشعاره تُعيننا على فهم كثير من أحداث عصره. يمتاز الشريف الرضى بشعره وثره، وبمكانته في علوم البلاغة حيث كشف عن مجازات القرآن الكريم والحديث الشريف.

يقول الباخري عن شعره: «كان شعره تغنياً بحبه وآلامه ونشيداً من أناشيد الفخر والعزة.» (الباخري، ١٩٨٥م: ٢٩٣/١) هو شاعرٌ شيعيٌ مشوب العاطفة يقول الشعر إرضاءً لنفسه وينبع شعره من ينابيع وجدانه ولم يتخذ وسيلةً للكسب. (عمر فروخ، ١٩٧٩م: ٥٩/٣) لم يقبل صلة من أحد ولا جائزة وردّ صلة أبيه. (ابن أبي الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١) «لقد كان الناس في عهد الشريف يتفقون ليعيشوا، أما هو فكان يتفقه لیسود. كان الشعراء في عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظوا بأعطيات الخلفاء، أما هو

فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسي من عروش الخلفاء.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٤٨/١)
كما يقول حنا الفاخوري: «لم يقبل صلة من أحدٍ ولا جائزة وكان يُرشح نفسه للخلافة.»
(حنا الفاخوري، ١٣٧٨ش: ٤٩٣)

الشريف الرضى شاعرٌ مقتدرٌ وفقهٌ عالمٌ ولذلك لُقِبَ بالشاعر الفقيه؛ لأنه إلى جانب الاستدلالات العلمية والفقهية كان يستفيد من سلاح الشعر لبيان أغراضه ومقاصده ولذلك حُساده في أيام عمره القصير لم يستطيعوا أن يمنعوا من ازدهاره العلمى والأدبى. إنَّ الشريف الرضى قد تأثر في أشعاره بالمتنبى لا سيما في شكاواه من الزَّمن وكان يرى ويعتقد أنَّ الزَّمان سبب فشله في الوصول إلى الخلافة ولذلك أُصيبَ بخيبة أملٍ وهو في هذا الصعيد شبيهٌ بأستاده المتنبى؛ لأنَّ المتنبى كان يسعى في تأليف دولة عربية كما أنَّ النزعة القومية العربية في شعره مشهودة، والشريف الرضى أيضاً كان يفكر بالخلافة ولكن كلاهما أصيبا بخيبة الأمل. (شوقى ضيف، ٢٠٠٧م: ٣٧٢/٥)

هو شاعر الحكمة ولا يعمدها كما يقول الدكتور زكى مبارك: «فقد أستطيع أن أجزم بأنه في هذه الناحية أشعر من أستاذة المتنبى؛ لأنَّ المتنبى كان يقصد إلى الحكمة قصداً ويتعمدها وهو متكلفٌ، أما الرضى فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية والطبع فيرسلها عفواً بلا تصنع ولا اعتساف.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٢٤/١)
وحكمته مطبوعة بطابع نهج البلاغة والقرآن الكريم لأنه كان مُعدَّ نهج البلاغة ومفسر القرآن الكريم.

قد خصَّ الشريف الرضى قسماً آخر من ديوانه بالفخر وفخرياته قد جاءت في أثناء قصائده أو بشكل قصائد مستقلة، فعلى أى حال «شعر الشريف الرضى في أى نوع كان تسوده روح الفخر وعزة النفس والشكوى من الزَّمان والشيب، قلما تجد له قصيدة في مدح كانت أو رثاء أو في غيرها إلا رأيت روح الفخر ترشَّح فيها.» (البستاني، ١٩٨٦م: ١٧٧/٣)
إنَّ شعر الشريف الرضى كان سبباً في انطفاء حرارة طموحه إلى المعالى ولم يتكئ عليه لغرض المدح أو الثناء، إنَّما انقاد إليه لضرورة الفارضة التي حملته إلى هذا الاتجاه نحو تحقيق طموحه وغاياته و«إلا فهو أحد علماء عصره قرأ عليه أجلاء الأفاضل.»
(ابن عنبه، لاتا: ٢٣٢)

يقول ابن سينا: «الشعر لا يتم إلا بمُقدّمات مُحيلة ووزن ذى إيقاع متناسب ليكون أسرع تأثيراً فى النُفوس.» (ابن سينا، ١٩٦٩م: ٢٠) يوجد فى شعر الشريف نماذج رائعة تؤيد كلام ابن سينا لاسيّما فى نظمه قصيدة سمّاها بـ «العصماء» ومنها البيت التالى الذى نكتفى به دليلاً على ذلك (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٩٣/٢):

يا طَبِيَّةَ البانِ تَرعى فى خَمائِلِهِ لِيَهْنِكِ اليَوْمَ أَنَّ القَلْبَ مَرعَاكِ

يقول زكى مبارك عن أبيات هذه القصيدة: «يرينا الشاعر فى هذه الأبيات أن الحلاوة فى عيون النساء أمتع من الحلاوة فى عيون الأطباء والحق فى هذه القضية أن عيون الغزلان فى غاية من الروعة، ولكنها محرومة من صفة أساسية فى عيون الملاح، وهى الإفصاح؛ ذلك لأنّها تتمتع بصفة الإفصاح فعين الطيبة تروّعك، ولكنّها لا تحدّث، أما عين المرأة فتروّعك وتُفضى إليك فى لحظة بألف حديث وحديث.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ١٣٩/٢) ولعلّ الشريف قصد إلى ذلك حين قال: فكان الفضل للحاكي (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٩٣/٢):

حَكَتْ لِحَاظُكَ مَا فى الرِّيمِ مِنْ مُلِحٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ فَكَانَ الفَضْلُ لِلْحَاكِ

التعريف بفن الرثاء لغة واصطلاحاً

١. الرثاء لغة:

يقال رثى فلانٌ فلاناً يرثيه مريثيةً إذا بكاه بعد موته قال: فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه ترثيةً ورثيت الميت رثيثاً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيتته ورثوت الميت أيضاً إذا بكيتته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعراً ورثت المرأة جعلها ترثية ورثيته ترثاة رثايةً فيهما. (الزبيدي، ١٤٢٢ق: مادة رثا)

٢. الرثاء اصطلاحاً: هو تعداد خصال الميت والتفجع عليه بما كان يتصفه به من صفات كالكرم، والشجاعة، والعفة، والعدل، والعقل، وإظهار الحزن، واللوعة، والحسرة على فقدانه شعراً كان أم نثراً. يستعمل الرثاء بحتمية الموت كما يقول طرفة بن العبد فى فلسفته الشخصية المتناقضة التى تصطبغ بصبغة اليأس (الزوزنى، ٢٠٠٦م: ٩٠):

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أخطأ الفَتَى لَكَالطَّوْلِ المُرْحَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

الثناء عند الشريف الرضى

من يلاحظ أشعار الرضى يرى أنه أمام شاعر كثير البكاء على الراحلين، كثير التعزية لأقاربه وأصدقائه ممن فقدوا أحبابهم. إنَّ الشريف الرضى كما جاء في ترجمته كان كثير الصلة على حسب مقتضى حياته بكبار الرجال ممن يعاصرونه ومن الطبيعي أن يستمرَّ هذه الصلة بعد موت هولاء الكبار ويتذكروهم ويرثيهم ويتألم لفقدهم لذلك كان الرثاء متنفساً لآلامه، وأحزانه، ووفائه، وإلحاحه في التحسُّر على فقدهم. قد لفتت كثرة مرثي الرضى، التي بلغت إحدى وثمانين قصيدة ومقطوعة، بجرارة عاطفتها نظر الأدباء والمؤرخين، قال الثعالبي: «وهو أشعر الطالبين من مضي منهم ومن غير على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت أنه أشعر قريش لم أبعث عن الصدق.» (أحمد حسن الزيات، لاتا: ٢٠٨) ثم قال بعد ذلك: «لست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المرثي منه.» (الثعالبي، ١٩٨٣م: ١٣١/٣) «إنَّ تفجع الرضى لم يكن محدود الإطار ضيق النطاق، ينحصر في الأصدقاء والأقرباء المعروفين فحسب، بل كان يتفجع ويبيكى حتى الذين لم تربطه بهم صلة وثيقة أو علاقة ودية صميمة.» (عزيز، ١٤٠٦ق: ٤٤) وهنا نستطيع أن نقول «لعلَّ أكبر عنصر متغير في مرثي الرضى هو ملائمة لمقتضى الحال فإن كان الراحل فارساً أو كاتباً أو شيخاً نحويّاً، أو أستاذاً فقيهاً أو متكلماً أو شاعراً، رجلاً كان أو امرأة، حضرياً أو بدوياً، فإن رثاء الرضى يراعى ما يلائم شخصية الراحل من حدود وأوصاف ويزيد على ذلك التزام شئ من الأسلوب قد يليق بالبدوى أكثر من الحضري (كما هو الحال في مرثيه لصديقه البدوى ابن ليلي) وبالفارس أكثر من الكاتب، من هنا نرى أن الرضى جدَّ في المعاني والأسلوب على حد سواء.» (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٥٨٢/٢) إنَّ الشريف الرضى في قصائده الرثائية لم يفرق بين الأفراد من حيث المنزلة السياسية والاجتماعية بل تزداد مرثي الرضى حرارة وحزنا عميقا على قدر علاقته بالميت والتصاقه بمودته وصداقته، كما نراه يرثي أبا إسحاق الصابي رغم الاختلاف الديني بينهما، بأبلغ الرثاء ولم يأبه لنقد الناقدين؛ لأنَّ الصابي من أصدقائه المخلصين وهو الذي طالما أثار في نفس الشريف الطماح نحو المجد والخلافة وجعله يرمى ببصره نحو آفاق سامية ولذلك رثاه الرضى لما توفي ببغداد عام ٣٨٤ق، كما رثى أباه بأسلوب

حزين نائر، بقصيدته المشهورة التي أولها، قوله (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٩٤/١):
 أَعْلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَبَا ضِيَاءَ النَّادِي
 لم يكن الرثاء عند الشريف الرضى مقتصرًا على الرجال المرموقين البارزين، بل
 كان يرثى حتى المغمورين من أصدقائه ممن لم يشغلوا مناصب هامة. كما نلاحظ رثاءه
 لصديقه البدوي أبي العوام في سنة ٣٩٣ق بقصيدة، هذا مطلعها (الشريف الرضى،
 ١٣٠٧ش: ١٨٢/١):

أَدَارِي الْمُقْلَتَيْنِ عَن ابْنِ لَيْلَى وَيَأْبَى دَمْعُهَا إِلَّا لِحَاجَا

إن ديوان الرضى مشحونٌ بقصائد الرثاء وكان الشاعر معروفًا بالرثاء واشتهاره
 بالرثاء أكثر من كل أغراضه الشعرية بحيث نستطيع أن نقول إنه شاعر الرثاء بلا منازع،
 يقول عنه ابن أبي الحديد في مقدمة نهج البلاغة: «وإن قصد في المراثي جاء سابقاً
 والشعراء منقطع أنفاسها على إثره.» (ابن أبي الحديد، ١٩٦٥م: ١٥/١)

ولقد كان الرضى «في علاقاته الاجتماعية وفيما إلى أبعاد الحدود وهذا ما يفسر إلحاحه
 الشديد في رثا أقرابه وأصدقائه، ولم يكن يقنع في رثاء من يجبهه بقصيدة واحدة - كما
 جرى العرف بين الشعراء - ولكنه بكى الكثيرين منهم بجملة من عواطفه وعبارة جياشة بأكثر من
 قصيدة، كما فعل في رثاء ابن ليلى صديقه البدوي، والطائع العباسي، وأبي إسحاق الصّابي،
 والحمداني، وبهاء الدولة وغيرهم من أصدقائه.» (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٤١٦/٢)

لقد وجد الشريف الرضى في الرثاء متنفساً لآلامه وأجزائه وإخفاقه في تحقيق
 طموحه في الحياة، يضاف إلى ذلك وفاؤه للذين يرثيهم حتى بعد موتهم وإلحاحه في
 الحسرة على فقدهم، كما يضاف إليه منهجه الجديد في رثائه للحسين بن علي (ع) الذي
 كان يفخر به وبأهل بيته ويذكر قبورهم ويتشوق إليها. هذه العوامل النفسية كلّها دفعت
 الرضى إلى الإجادة والإكثار في هذا الفن وامتزج بأساة الموت، واستحق أن يسمّى:

”النائحة النكلى“. (الصفدي، ١٩٩١م: ٣٧٤)

إنّ مراثي الرضى - مثل مدائحه - متعددة الأغراض، فالمرثية تتألف من عدة فنون
 أبرزها: الوصف، والشكوى، والفخر، والحكمة، فضلاً عن الأبيات المفردة. ويلاحظ أنّ
 مراثي الشريف كلما كانت متعلقة بشخص شديد الصلة به، كأبيه وأمه، كلما زادت أبيات

الفخر فيها، والملاحظة البارزة أيضاً أن الرضى يتفلسف في مرثيته واعظاً ناصحاً، مفتتحاً بعض القصائد الرثائية بخواطر الموت وحتميته وعدم الجدوى من البكاء. (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٤٣٢/٢) والرثاء عنده ليس على نسق واحد، فهو يتفاوت بتفاوت الذين يرثيهم قريباً أو بعداً من نفسه كما يتفاوت عدد الأبيات. مثلاً في رثائه لوالدته كان يرثيها ثم يجيء بعد رثائها بالفخر، حيث إنّه في سنة ٣٨٥ق رثى والدته فاطمة بنت الناصر بقصيدة مطلعها (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٨/١):

أَبِيكَ لَوْ نَقَعَ الْغَلِيلُ بُكَائِي وَأَقُولُ لَوْ ذَهَبَ الْمَقَالُ بِدَائِي

«فتقع في ثمانية وستين بيتاً تتوزع على النحو التالي: ٣١ رثاء، ٢١ وصف، ٩ شكوى، ٦ فخر، ١ ذم الزمان.» (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٤٣١/٢)

ثم يفتخر بوالدته وبآبائها ويعدّ فضائلهم الأخلاقية وأفعالهم البارزة وأنهم كانوا قد بلغوا غاية المجد، والفضل، والشرف ولا يدانيهم أحدهم في النعمة والجود (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٠/١):

أَبَاؤُكَ الْعُرُّ الَّذِينَ تَفَجَّرَتْ بِهِمْ يَنَابِيعُ مِنَ النَّعْمَاءِ

يرثي الشاعر في هذه القصيدة والدته أولاً ثم يفتخر بآبائها. وأما بالنسبة إلى الآخرين فالحال يختلف، فإذا كان المتوفى مثلاً من أصدقائه أو من الكبار فإنه يرثيهم أولاً ثم يقوم بوصفهم، كما يرثي أبا طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني في سنة ٣٨٢ق بقصيدة مطلعها (المصدر نفسه: ٣٧٨/١):

الْقِي السَّلَاحَ رَبِيعَةَ بِنِ زَارٍ أَوْدَى الرَّدَى بِقَرَبِ عِكَ الْمِغْوَارِ

«تتألف من تسعة وخمسين بيتاً تتوزع على: ٣٣ رثاء، ٢٢ وصف، ٣ شكوى، ١ مفرد.» (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٤٣٠/٢) فتكلم عن شجاعته في ساحات القتال وقال إنّ ساحات القتال لا ترى بديله أبداً. ثمّ قام بوصفه بعد أبياته الرثائية وتكلم عن شجاعته وبطول باعه في معارك الحرب (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٣٧٩/١):

مِنْ مَعَشَرٍ غُلِبَ الرَّقَابِ جَحَاجِحٍ غَلَبُوا عَلَى الْأَقْدَارِ وَالْأَخْطَارِ

ونستطيع أن نقول إنّ مرثى الشريف الرضى في أهل البيت (ع) وأسرته تبدأ أولاً بالرثاء ثم الفخر وأما قصائده الرثائية في أصدقائه والكبار والعلماء والآخريين يكون

أولاً الرثاء ثم الوصف.

إنَّ الموت عند الرضى حقٌّ وهو يعلم أنَّ الطريق الوحيدة التي تُهَوِّنُ على الإنسان فقد الأحبة هي أن يعلم الإنسان وبكل إيمان أن الأرواح والأجسام ليست غير أمانة وعارية عند الإنسان. (المصدر نفسه: ٢٩٢/١):

نَعُضُّ عَلَى الْمَوْتِ الْأَنَامِلَ حَسْرَةً وَإِنْ كَانَ لَا يَغْنِي غِنَاءً وَلَا يَجِدِي
وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَكْلُومَ عَضُّ بَنَانِهِ وَلَوَّمَاتٍ مِنْ غَيْظِ عَلِيِّ الْأَسَدِ الْوَرْدِ
عَوَارِيٍّ مِنَ الدُّنْيَا يَهَوِّنُ فَقْدَهَا تَيَقُّنُنَا أَنَّ الْعَوَارِيَّ لِلرَّدِّ

وهو في شعره الرثائي «لا يعتمد الرثاء ككثير من الشعراء إلى العبرة بالدهر والماضى وطلب العزاء وذكر مناقب المرثى، وإنما يشعر في أول قصيدة بمصابه هو، وتلتحم المعاني التحاما، فأنت حقا تستمع إلى النائحة الثكلى.» (محمد حلو، ١٩٨٦م: ٢٣٢/٢) إنَّ من أهم دواعي الحزن والمأساة عند الرضى هو استنزاء الفساد الخلقي، والتفكك الاجتماعي، وانتشار الفتن بلحمة المجتمع «ولذا يعكس براءة تامة ما كان عليه المجتمع من الغدر، وعدم الالتزام بالعهود، والانحطاط، والدناءة، وما كانت تنطوى عليه ضمائرهم من أضغان وسخائم.» (عزيز، ١٩٨٥م: ٤٤)

لَأَيِّ حَبِيبٍ يَحْسُنُ الرَّأْيَ وَالْوُدَّ وَأَكْثَرُ هَذَا النَّاسِ لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ
أَرَى ذِمِّي الْأَيَّامَ مَا لَا يَضُرُّهَا فَهَلْ دَافِعٌ عَنِّي نَوَائِبُهَا الْحَمْدُ
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَا بِمُطِيعَةٍ وَلَيْسَ الْخَلْقُ مِنْ مُدَارَاتِهَا بُدُّ
(الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٥٨/١)

الجانب الآخر من رثاء الرضى هو إنه يستخدم في قصائده الرثائية، الحكمة، والوصف، والهجاء، والفخر في رثائه ويكون قصيدة مزيجية من الفنون المختلفة، مثل الشريف الرضى في هذا المجال مثل الصيدلي يحسن تركيب الدواء، فهو شخصٌ مسؤولٌ يركب الدواء بالمقادير معينة ومحددة يؤخذ بعضها بالفطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضاراً أو غير مفيد.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٢١٢/١)

إنَّ كتب التاريخ، والسِّير، والأدب من عصر الرضى إلى العصر الحاضر متفكّة على

أنه شيعي إمامي، من أسرة شيعية إمامية، ولاغبار على معتقده إطلاقاً، ولكن بعض المؤلفين رماه بالزيدية والاعتزال لكي يبرر طلبه للخلافة. (عبدالرزاق محي الدين، ١٩٧٧م: ٧٥) يقول الدكتور زكي مبارك: «مثل الشريف بين أهل التشيع كمثل الجاحظ بين أهل الاعتزال، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواص، كذلك الشريف لا يدرك مراميه غير الخواص». (زكي مبارك، ١٩٣٨م: ٢١٢/١) وله في بكاء الإمام الحسين (ع) خمس قصائد طوال جميلة «الأولى رائية نظمها سنة ٩٨٧/٣٧٧ والثانية لامية قالها سنة ٩٩٧/٣٨٧، والثالثة هائية نظمها سنة ١٠٠٠/٣٩١، والرابعة دالية قالها سنة ١٠٠٤/٣٩٥، والخامسة مقصورة لم يذكر لها تاريخ، ويقال: إنها آخر ما قاله من الشعر، وإنها ربما كانت منقولة». (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٤٢١/٢) والتشكيك في نسبتها يأتي: من أنها لينة لا تشبه شعره. (عبدالفتاح الحلو، ١٤٠٦ق: ١٧٠/١) إن الشريف في أبياته في رثاء جده سيد الشهداء (ع) يتخذ موقفاً سياسياً ويعرج على بني أمية، مهدداً متوعداً بيوم عظيم، «فالمهدى المنتظر (ع)» موتور، شاهراً سيفه في أقاصي الأرض. وأسلوب الرضى هنا رمزية؛ إذ عبر عن مخالفة العلويين للخلافة بالأموية، سواء كان بوبها أم عباسيا (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٣٧٧/١):

بني أمية ما الأسياف نائمة عن شاهر في أقاصي الأرض موتور

المعاني المطروحة في قصائد الشريف الرضى الرثائية

١. الشكر: من المعاني الرثائية المطروحة في شعر الشريف الرضى إنه كان يعادى، ويصادق، ويعي حقوق الأصدقاء كاملاً ويعاملهم أحسن معاملة، ويحفظ كرامة الصديق في حضوره وغيبته (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٦١/٢):

أنا مولى العدى وإن كنتُ عبد الأصادق

كما يلاحظ هذا الإيفاد والاحتفاظ في حق صديقه أبي إسحاق الصابي ويبقى الشريف يذكر صديقه بأحق الذكر ولما مات الصابي رثاه أكثر من مرة، مع ما كان بينهما مراتب من الاختلاف في العقيدة؛ لأنه لم يكن مسلماً وكان يدين بدين الصابئة (كحالة، ١٣٧٢ش: ١٢٤/١؛ التونكي، ١٣٤٤ق: ٤٦٧/٤) وكان كلما رثاه نصّ على

قلمه وبلاغته (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٩٦/١):

تَكَلَّتْكَ أَرْضٌ لَمْ تَدَلِّكَ ثَانِيًا أَنِّي وَمِثْلُكَ مُعَوِّزُ الْمِيْلَادِ
مَنْ لِلْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ إِنْ هَمِي ذَاكَ الْغَمَامُ وَعَبَّ ذَاكَ الْوَادِي

وتستمر هذه الرابطة ويدل على عمق هذه الرابطة بالمشاعر النابضة وحين يمر بعد عشر سنوات على قبر صديقه، ولا شك أنه دارس فنتير فيه عهود الصداقة العواطف التي تفيض بدهاءه، وما أحلى ما ينشد (المصدر نفسه: ٥٧١/٢):

لَوْلَا يَدُ الرُّكْبِ عِنْدَكَ مَوْفِي حَيِّتُ قَبْرِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقِ
كَيْفَ اشْتِيَاقَكَ مُذْ نَأَيْتَ إِلَى أَخٍ قَلَقِ الضَّمِيرَ إِلَيْكَ بِالأَشْوَاقِ
أَمْضَى وَتَعْطِفُنِي إِلَيْكَ نَوَازِعُ بِنَفْسٍ كَتَنَفَسِ العُشَاقِ

ولا يفوتنا بأن اهتمام الرضى بمدح ابن جنى وراثته موصول الأواصر بحياته الأدبية فقد كان ابن جنى، أستاذ الرضى شرح قصيدته الرائعة في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني، وهذا مطلعها (المصدر نفسه: ٣٧٨/١):

أَلْقَى السَّلَاحَ رَبِيعَةَ بِنِ زَارِ أَوْدَى الرَّدَى بِقَرَيْعِكَ المِغْوَارِ
وَتَرَجَّلِي عَن كُلِّ أَجْرَدٍ سَاجِحٍ مِيلَ الرُّقَابِ نَوَاسِرِ الأَبْصَارِ

إن الشريف الرضى قد مدح ابن جنى وراثته؛ لأنه شرح إحدى قصائده في الرثاء وكذلك فعل مع صاحب بن عباد، فقد بلغه أن شيئاً من شعره وقع إليه فأعجب به وأنفذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ، ومدح صاحب بن عباد بقصيدة بارعة ولكنه أخفاها منه خوفاً من طلب العطاء به (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٢٥/١):

بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَتَانِ تَلَاقَتَا نَثْرِي الَّذِي بِكَ يِقْتَدِي وَقَصِيدِي
إِنْ أَهْدِ أَشْعَارِي إِلَيْكَ فَإِنَّهُ كَالسَّرْدِ أَعْرِضُهُ عَلَى دَاوُدِ

والرضى يقتدى به في شعره ونثره فبينهما صلات الأدب، فإذا أهدى إليه أشعاره فكأنه يعرض السرد على داود.

٢. الالتزام بالتشيع: يزخر ديوان الشريف بقصائد الرثاء وإلى جانب رثائه في الأصدقاء والأحباء، ظهرت قصائده الرثائية تفيض بالعواطف والمشاعر الجياشة، وقدّم قصائد رائعة في رثاء الإمام الحسين (ع): تلك المراثي القليلة التي تجعل الشريف

الرضى تبرز بين معاصريه وشعراء الشيعة. وعندما نظر إلى هذه القصائد نرى فيها طبيعة التفكير الشيعي (المصدر نفسه: ٣٣/١):

كَرْبَلَا لَا زَلَيْتَ كَرَبًا وَ بَلَا مَالَقِي عِنْدَكَ آلُ الْمُصْطَفَى
كَمْ عَلَى تُرْبِكَ لَمَّا صُرُّعُوا مِنْ دَمٍ سَالٍ وَمِنْ دَمَعِ جَرَى

فالشريف الرضى شاعرٌ شيعي ملتزمٌ مؤمنٌ بمذهب آل البيت (ع) ويعمل على نشر فضائلهم ويتألم لآلامهم، ولكن ذلك لا يمنعه من احترام الآخرين وتجليههم وينشد عن "الغدير" (المصدر نفسه: ٣٣٠/١):

غَدَرَ الشُّرُورُ بِنَا وَوَفَاؤُهُ يَوْمَ الْغَدِيرِ يَوْمَ أَطَافَ بِهِ الْوَصِيُّ وَقَدْ تَلَقَّبَ بِالْأَمِيرِ

وفي موضع آخر نحمده يمدح الفاطميين رغم أنه كان يعيش في دولة العباسيين. (المصدر نفسه: ٢٣٨/١) ولعله يكون صحيحاً ما قيل «إنَّ اهتمامه بشرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحضٌ للمفتريات التي وُجِّهت إلى التشيع والتي ادَّعت أنَّ الشيعة لا يهتمون بالقرآن والحديث». (زكي مبارك، ١٩٣٨م: ٢١٢/١) ومن هنا نفهم أنَّ الشريف الرضى كان معلماً عظيماً وكان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية. يقول الدكتور عبداللطيف عمران: «إنَّ الشريف الرضى موضوعي في تشيعه، بعيدٌ عن الفتن والميول الذاتية، إنَّه مسلمٌ في الدرجة الأولى، يرى في الرسول (ع) أولَ عظماء المسلمين وأفضلهم ويرى في عليّ (ع) الرجل الثاني وهذه الموضوعية لم تصرفه عن مدح أو رثاء بعض خلفاء بني العباس كمدح الخليفة الطائع ورثائه». (عمران، لا تا: ٢٣٩) إنَّ الشريف الرضى في سبيل تشيعه يهجو بني أمية ويقول: «إنَّ الخلافة أصبحت بعيدة عن الشعب منزلة عن الناس والمجتمع قد استولى على منابرها الأمويون». (نورالدين، ١٤١١ق: ١٤٠) كما نرى هذا المعنى في أشعاره في رثاء الإمام الحسين (ع) (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٨٠/١):

إِنَّ الْخِلَافَةَ أَصْبَحَتْ مَرْوِيَةً عَنْ شَعْبِهَا بِيَاضِهَا وَسَوَادِهَا
طَمَسَتْ مَنَابِرَهَا عُلُوجُ أُمِيَّةٍ تَتَرُوا ذَنَابَهُمْ عَلَى أَعْوَادِهَا

٣. تعداد خصال الفقيه وصفاته: رثى الرضى عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية؛ لأنَّه تفرد بالصلاح، والعدل، وجميل السيرة من أهل بيته، كما أثنى على رفقته بأهل

البيت(ع) وأشار إلى منعه لتلك العادة التي درجت في عهد الأمويين، وهى سب الإمام

على بن أبي طالب(ع) على المنابر، بقوله (المصدر نفسه: ١/١٦٩):

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيب من فتى من أمية لبيكتك
أنت نزهتنا عن السب والقذف، فلو أمكن الجزاء جزيتك

رثى الرضى أبا على الحسن بن أحمد الفارسي النحوى وأشاد فيها بقوة الفارسي في مقارعة الخصوم. وفي مرثيته لشرف الدولة البويهى المتوفى سنة ٣٧٩ق ذكر الشريف في

رثائه مجده عليه وعلى أبيه (المصدر نفسه: ٢/٨٤١):

أعاد عزأبي غضاً وخولهُ ما شاء من بذل إعزاز وإكرام

وفي رثائه لصديقه أبي منصور المرزبان الكاتب الشيرازى توقف الرضى عند أيام

الصدقة وحن إلى المجالس الأدبية الرائعة (المصدر نفسه: ١/١٢٤):

كم مجلس صبحته ألسنتنا تفض فيه لطائم الأدب

وموته غاض غدير الكلام، وهوى علم المجد وكان قرينه ونسيبه (المصدر نفسه: ١/١٢٤):

كنت قريبى ولست من لدنى كنت نسيبى ولست من نسي

وفي مرثيه الثلاثة لصديقه الكبير أبى إسحاق الصابى، شبهه بالمرثية الأولى بالطود

الشامخ، وبالضياء المنير (المصدر نفسه: ١/٢٩٤):

أعلمت من حملوا على الأعواد أرايت كيف خبا ضياء النادى

وفي مرثيته لأمه عدد الرضى لنا صفاتها ومناقبها فهى: عفيفة زاهدة مؤمنة، اشترت رعد

الجنان بعيشة خساء، فهى أم بارّة، فضلها خالد ومعروفها لا يقدر (المصدر نفسه: ١/١٩):

لو كان مثلك كل أم برّة غنى البنون بها عن الآباء

كيف السلو وكل موقع لحظة أثر لفضلك خالد بإزائى

إنها نجيبة ولدت النجباء، وآثار أيديها البيضاء تظهر في الضيق والأزمات ثم مدح

آبائها وافتخر بهم. وفي مرثيه لوالده عدد الرضى مناقبه، فقد مضى الموسوى نقى الثوب

والعود، فقد أعمد المهند في الثرى بعد أن ملأت فضائله البلاد (المصدر نفسه: ٢/٧٣٩):

حمل العظام والمغارم ناهضاً ومضى على وضح الطريق الأفوم

ثم مدح فضله وأعماله المجيدة وافتخر به فكان يرتجى في الملمات لرأب الصدع، فهو

الظاهر بن الظاهر يصل إلى جذم النبوة، كما افتخر بأبائه ومكانتهم، وبلغ الفخر مداه

بقوله (المصدر نفسه: ٧٤١/٢):

لَا تَحْسَبَنَّ جَدْنَا طَوَاهُ ضَرِيحُهُ قَبْرًا، فَذَاكَ مَغَارُ بَعْضِ الْأَنْجُمِ

٤. التعزية والمواساة: «لجأ الرضى في معظم مرثيته إلى تعزية ذوى الفقيد، وأقاربه، وأصدقائه، ومواساتهم، متسائلاً عن مصير القرون والعظماء. ففى تعزيتة للخليفة الطائع عن ابنه أبي الفتح، دعاه إلى الصبر والسلوى؛ لأنَّ الابن يمكن أن نجىء بمثله، بينما الخسارة الحقيقية هى خسارة الآباء.» (أبوعلوي، ١٩٨٦م: ٤٤٧/٢) ويعتقد الشريف الرضى بأنَّ العزاء الحسن يكون بحسن استخدام العقل (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٦٦٣/٢):

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَقْلُ الْفَتَى عَوْنَ صَبْرِهِ فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الْعَزَاءِ سَبِيلُ

لعلَّ الشريف الرضى بهذا البيت يشير إلى تأثيره بلامية السموأل بن عاديا المشهورة "إنَّ الكرام قليل" وهو شاعرٌ يهودى عاش في العصر الجاهلى. وفي مرثيته للصاحب بن عباد، تساءل الرضى فيها كيف طوى الموت الأمم الغابرة، والملوك، والسادة من نزار، وبين، وبنى المنذر، والفرس. كذلك في مرثيته لأستاذه ابن جنى، فقد شكى من الفناء، ومضى مكثرًا من تسائله «أين؟» مثل قوله (المصدر نفسه: ٥٦٣/٢):

فَأَيْنَ الْمُلُوكُ الْأَقْدَمُونَ تَسَانَدُوا إِلَى جِذْمِ أَحْسَابِ كِرَامِ الْمَعَارِقِ

هكذا ساق الرضى الحكمة والموعظة وأورد الحجج المنطقية ليدخل العزاء والسلوان إلى قلوب المفجوعين بموت أحبّتهم وأعزّتهم.

٥. فداء الرّاحل وتحدّى الموت: كثيراً ما يتمنى الشريف الرضى دفع الموت في مرثياته وفداء الرّاحل أو الرّاحلة بنفسه، أو بفتيانه المدججين والمجربين في الحروب وساحات الوغى، فكأنّه يتصدى الموت بقسوته. ونرى هذا المعنى في رثاء صديقه أبي إسحاق الصابى ويكرر نفسه في رثاء أمه، فتمنى لو كانت تقدى، إذن لفداها بالفتيان المدربين على القتال، كما تمنى أن يفديها بنفسه. وفي مرثيته لصديقه عبدالعزيز بن يوسف الحكار افتتحها بقوله (المصدر نفسه: ٤٧٩/١):

لَوْ كَانَ يَرْتَدِعُ الْقَضَاءُ مُرْدَعٍ أَوْ يَنْشَى مُدَجِّجٍ وَمُقَنَّعٍ

فقد جاء بالمعنى الذى استغله كثيراً من قبل، وهو تمّنية أن يفدى الرّاحل، إذن لدافع عنه بالفرسان المدججين بالسلاح.

٦. الموت وحتميته في شعر الشريف الرثائي: كفاكم قول الشريف بأن الموت لامحالة قادمٌ، وكلنا سنموت؛ وليس هناك تفضّل مُثرِ على فقيرٍ، ولكلّ واحدٍ منّا عند الموت كفنٌ واحدٌ، وبذلك لا يظلم الموت أحداً:

ألا يا موتُ لم أر منك بُدّاً أتيت، وما تحيفُ وما تحاجي

«ترتبط أفكار الرضى عن الزمن مأساويته ارتباطاً قوياً بأفكاره عن الموت، بل إن الشاعر المرهف الحساس والمبدع يرى في الموت السبب الأول لاغترابه الروحي يتحدث عن الموت.» (عزيز، ١٩٨٥م: ٣٥) الموت حتمى على كل نفس، فهو يغزو بجيشه كل يوم، ولا يرضى بالفداء، أو بالأسرى والسبايا (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٩٧٣/٢):

مُغِيرٌ لا يَفَادِي بِالْأَسَارَى وَسَابٌ لا يُنُّ عَلَى السَّبَايَا

كثيراً ما يدعو الرضى إلى التّفور من الدنيا وتركها، وعدم التّعلق بأثوابها وزخرفها، فهو يراها امرأةً كثيرة الأزواج (المصدر نفسه: ١٨٦/١):

إِنِّي إِذَا حَلَبَ الْبَخِيلُ لُبَانَهَا أَمْسَيْتُ أَحْلِبُهَا دَمَ الْأَوْدَاجِ

حَطَبْتَنِي الدُّنْيَا فَقُلْتُ لَهَا ارْجِعِي إِنِّي أَرَاكِ كَثِيرَةَ الْأَزْوَاجِ

كما يبدأ مراثيه بخواطر فلسفية وحكمية حول حتمية الموت وقسوته، والشكوى من صروف الدّهر، وعدم جدوى البكاء والعيويل كما في مراثيه لعمر بن إسحاق بن المقتدر المتوفى سنة ٣٧٧ق (المصدر نفسه: ٦٦١/٢):

أَرْجِعْ مَيْتاً رَنَّةً وَعَوِيلٌ وَيَشْفِي بِأَسْرَابِ الدُّمُوعِ غَلِيلٌ

حيث تحدّث بإطناب عن مصير الإنسان فالعمر قصير ولن ينال الفتي في العيش فوق عمره كما أنّ الفناء غاية الناس جميعاً. إنّ الشريف الرضى نثر شيئاً من فلسفته حول الموت وحتميته، وبطشه، وقسوته في رثائه لأبي طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني المتوفى سنة ٣٨٢ق كقوله (المصدر نفسه: ٢٨٣/١):

تَفُوزُ بِنَا الْمُنُونُ وَتَسْتَبِيدُ وَيَأْخُذُهَا الزَّمَانُ وَلا يَرِيدُ

هكذا يبدو لنا الشريف الرضى في مراثيه حكيماً واعظاً أمام مأساة الموت.

٧. الدعاء بالاستسقاء لقبر المرثى: من سنن العرب المألوفة دعاءهم لقبر الميت بالاستسقاء بعد أن يدفن في القبر، منها قول متمم بن النويرة في رثاء أخيه مالك (البستاني، ١٩٨٦م: ٦٥/٢):

سَقَى اللهُ أَرْضاً حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ رَهَامَ الْغَوَادِي الْمَرْجِيَاتِ، فَأَمْرَعَا
يقول: سقى الله تربة مالك بديم السحب الغوادي فتخصب تربته. في هذا المجال
تأثر الرضى بتقاليد القصيدة الجاهلية ودعا بسقيا لقبر الميت على طريقة الجاهليين في
مراثيهم فكان تقليدياً في هذه الناحية وسار على منوالهم، كما يقول في قصيدة يعزى أخاه
عن ابنة له توفيت، منها (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١/١٢٧):

أَرَابَ مِنْ يَوْمِكَ مَا أَرَابَا لَازِلْتُ أَسْتَسْقِي لَكَ السَّحَابَا
كُلُّ أَعْرَضٍ يَدِيقُ الذَّهَابَا مُجَرِّراً عَلَى الرَّئِي أهدَابَا
يوم وفاتك ألقى ريباً عظيماً في قلوبنا وأنا لا أزال أدعو وأتمنى من السحب المطرة
أن تسقى ترابك، ثم شبه الشريف الرضى هذه السحب الممتلئة بالماء، بالنساء الحبلبات
اللاقي يجرن أهداب ملاسهن على الأرض لشدة امتلائها بماء المطر.

٨. الشكوى من الزمان: «إن الشريف الرضى يرى الدنيا بعين الرجل المثقف، المثقف
الشريف، لا المثقف الصلوك.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٤٩/١) ولذلك نراه يبين أن
الدَّهر والزمان ليسا ملامين على موت الإنسان، بل مكلفان من جانب ربهما القدير
والجليل لأداء واجبهما وهو الموت (المصدر نفسه: ١/١٢٥):

لَا لَوْمَ لِلدَّهْرِ وَلَا عِتَابَا تَعَابَ إِنَّ الْجِلْدَ مَنْ تَعَابِي
صَبْرًا عَلَى الضَّرَاءِ وَاحْتِسَابَا أَصْبَرْنَا أَعْظَمْنَا ثَوَابَا
ويتحدث عن الصبر والتغافل عبر هذه الفاجعة ويرينا انصباب الدموع وغيليان الغم
في القلوب لأجل الفقيد والميت؛ وحال كون الدهر يقوم بعمله ولا يرجع المرثي بالبكاء
والعويل. كما يقول في موضع آخر في القصيدة (المصدر نفسه: ١/١٢٧):

وَإِنْ لَبِسْتُ لِلْبَلَى جِلْبَابَا أَرَى الْبِكَاءَ سَفْهًا وَعَابَا
لَا تَجْعَلْنُهُ دَيْدِنًا وَدَابَا وَافَقَ مِنَّا أَجَلٌ كِتَابَا
«لم يقتصر الرضى في بث شكواه وذم زمانه على القصائد المستقلة، بل ظهرت
الشكوى في قصائد ذات أغراض متنوعة، فكثيراً ما يذم زمانه ويتحدث عن قلة الحظ
وعن خيبة الآمال ويغتنم فرصة مدح سلطان أو خليفة أو رثاء ميت من أسرته ليشير
إلى أنه لم يعط ما هو أهل له وأن الأيام قد ظلمته وأحداث الدهر وقفت في وجه
طموحاته.» (عمران، لاتا: ٢٠٧)

إنَّ من عادات الدَّهر في مَحيلة الرضى الغارةُ والشَّنُّ حين يترصد الإنسان لِيغيِّرَ عليه ويجذبه في فرصة ملائمة ومناسبة من حيث لا يفهم، مشيراً إلى هذا المضمون في شعره (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٢٨/١):

وَقَدْ شَنَّ فِيهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ غَارَةً تَنْتَنَّا وَلَمْ تَطَّلِعْ إِلَيْنَا كَتَائِبًا

يتحدثُ الشريف الرضى في كل موضع من أشعاره عن صفة ملائمة للدَّهر على حسب مقتضى الحال والمقام، كما يتصفُّ الدَّهر بصفات مختلفة تارةً كـ "الدَّهر الغلاب" (المصدر نفسه: ١٢٥/١):

أَمْضَى الزَّمَانُ حُكْمَهُ غَلَابًا أَصَابَنَا وَطَالَ مَا أَصَابَا

يشبَّه الشريف الرضى في هذا المجال الدَّهر الغلاب بالحاكم الذى يجرى ويمضى حكم الموت فينا ويصيبنا بالفاجعة وما يكون أطول هذه الفاجعة بالنسبة إلينا. وتارةً يسميه "الدَّهر الغالب" ويقول عندما يقاومنا ويهجم علينا الموت لا يدفعه البوابون والحجاب (المصدر نفسه: ١١١/١):

كَذَا يَهْجُمُ الْقَدْرُ الْغَالِبُ وَلَا يَمْنَعُ الْبَابُ وَالْحَاجِبُ

وفي موضع آخر يصفه بـ "الدَّهر الخؤون" من خلال ديوانه (المصدر نفسه: ١١٨/١):

لَزْنَا مِنَ الدَّهْرِ الْخَوْنِ بِمَصْدَمٍ يَحْطُمُ أَشْلَاءَ الْقَرِينِ الْمَجَادِبِ

إنَّ هذه الصفات كلها تظهر سمة من سمات الدَّهر لشكواه وانزجاره منه، ليشكوا ممَّا في باطنه من أحداث الزَّمان وموج الهموم. إنَّ الدَّهر عند الرضى من المعنويات المجردة، والرضى يجسِّمه إنساناً في عالم الواقع ويصفه بصفة الخؤون. لقد جاء الرضى بهذا الوصف ليؤكد على تصويره في ذهن المتلقى، ثمَّ يصوِّر له قدرة الكفاح على رقيقه، ولا يبقى قريباً إلا يحطِّم أعضاءه وجوارحه في هذا الكفاح.

النتيجة

- لقد اتضح أنَّ الشريف الرضى كان شاعراً مجيداً أكثرَ بارعاً فقيهاً مبدعاً تميز شعره بمجودة الألفاظ، وحسن الصياغة والديباجة، والخُلُوِّ من عيوب التعبير أو ساقطات اللغة، متفوقاً بذلك على معاصريه أمثال المتنبي وغيره. وقد أجاد في كل قصائده خاصةً رثائياته في الإمام الحسين بن على (ع)؛ وقد حذا حذوه فيها كثير من الشعراء لاسيَّما

شعراء الشيعة الذين يتفجعون على مقتل الإمام الحسين (ع)، حيث كانوا يحفظون أشعاره وينشدونها.

- إنّ مراثيه تنقسم بشكل عام إلى قسمين: رثاء أسرته وأهل بيته، ورثاء الأصدقاء، والملوك، والأعيان. وهو في رثائه لأسرته وأهل بيته، يبدأ برثاء أبيه، وأمه، وأهل البيت (ع) ثم يتطرق إلى الفخر بهم؛ أمّا في قصائده الرثائية للأصدقاء، والملوك، والأعيان أوّلاً يرثيهم ثم يقوم بوصفهم.

- عندما ننظر إلى أشعار الشريف الرضى من الناحية الفخرية والرثائية نراها تفوح منها الرائحة السياسية غالباً، وأنّ أشعاره لم تكن للتكسب بل وسيلة إلى أغراضه السياسية لاسيما في مراثيه عندما كان يعبر عن مخالفة العلويين بالأموية ويتخذ موقفاً سياسياً إزاء هذه القضية ويغير على بنى أمية بأسلوب رمزي، ويدعوهم غاصبي الخلافة.

- إنّ الرضى هو شاعر الرثاء الذى وجد في الرثاء طريقاً أفضل للوصول إلى هدفه، وقد أعانته على ذلك عبقريته الفذة، وما أصابه من الآلام والمصائب بسبب فقدان أعزائه وأصدقائه، ورثاؤه يحتوى على فنون أخرى من الفخر، والوصف، وغيره بحيث يمكن القول إنه بقصائده الرثائية ينظم أشعاراً كاملة.

- إنّ رثاء الرضى ليس على نسق واحد، فهو يتفاوت بتفاوت الذين يرثيهم قريباً أو بعداً من نفسه، كما أنّ أساليبه في الرثاء كانت كذلك. لعلّ أكبر عنصر متغير في مراثيه هو ملاءمة المراثية لمقتضى الحال أى إنّّه يراعى ما يلائم شخصية المراثى من أوصاف وحدود، سواء كان الراحل فارساً أو كاتباً أو شيخاً نحوياً، رجلاً كان أو امرأة، حضرياً أو بدوياً.

- لم يكن الرضى يلتمس الشهرة من رثاء الرجال المرموقين البارزين، بل كان يرثى حتى المغمورين من أصدقائه ممن لم يشغلوا مناصب هامة. وتتجلّى الشجاعة في رثائه لأشخاص غضبت عليهم السياسة وانقلب الناس ضدّهم، بينما بقى الرضى على وفائه وإخلاصه لهم كرثائه للطائع لله الخليفة المخلوع، ولأبي بكر بن شاهويه زعيم القرامطة في بغداد. ولهذا الحزن الذى شغل الرضى في حياته، وللرقة الحزينة التى تتغلغل وتتساقط في قصائده سمّاه الأدباء "نائحة التكلّى".

المصادر والمراجع

- ابن أبي الحديد. (١٩٦٥م). شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الجزء الأول. ط ٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ابن الأثير. (١٩٦٦م). الكامل في التاريخ. الجزء الخامس. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.
- ابن الجوزي. (١٩٣٩م). المنتظم. الجزء السابع. ط ١. حيدرآباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية.
- ابن خلكان. (لاتا). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: الدكتور إحسان عباس. الجزء الرابع. بيروت: دار صادر.
- ابن سينا، ابوعلی حسین بن عبدالله. (١٩٦٩م). المجموع أو الحكمة العروضية. تحقيق: محمد سليم سالم. لامك: لاتا.
- ابن عنبه، أحمد بن علي بن الحسين الحسني. (لاتا). عمدة الطالب. بيروت: دار مكتبة الحياة.
- أبو عليوى، حسن محمود. (١٩٨٦م). الشريف الرضى. لبنان: مؤسسة الوفاء.
- الباخرزى، أبو الحسن. (١٩٨٥م). دمية القصر. الجزء الأول. الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع.
- البيستاني، فؤاد أفرام. (١٩٨٦م). المجاني الحديثة. الجزء الأول. ط ٣. بيروت: دار المشرق.
- التونكي، الشيخ محمود حسن. (١٣٤٤ق). معجم المصنفين. الجزء الرابع. لامك: لاتا.
- الثعالبي. (١٩٨٣م). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة. الجزء الأول. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الحوفي، أحمد محمد. (١٩٧٩م). أدب السياسة في العصر الأموي. مصر: دار نهضة لطبع ونشر.
- الديلمي، مهيار. (لاتا). ديوان. المجلد الأول. ط ١. لامك: لاتا.
- الرافعي، مصطفى صادق. (١٩٧٤م). تاريخ آداب العرب. الجزء الثالث. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الزبيدي. (١٤٢٢ق). تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: عبد الكريم الغرباوى. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمية.
- الزوزني، الحسن بن أحمد. (٢٠٠٦م). شرح المعلقات السبع. تحقيق: محمد الفاضلى. ط ١. طهران: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.
- الزيات، أحمد حسن. (لاتا). تاريخ الأدب العربي. بيروت: دارالمعرفة.
- الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى. (١٣٠٧ق). ديوان. مع دراسة وضيافة بقلم الشيخ عبدالحسين الحلبي. بيروت: المطبعة الأدبية.
- الشريف الرضى، أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى. (١٩٧٦م). ديوان. صنعة أبي حكيم الخبري. تحقيق: عبدالفتاح الحلو. الجزء الأول. ط ١. باريس: دار الطليعة.
- الشريف المرتضى، أبو القاسم علي بن حسين بن موسى (١٩٩٧م). ديوان. شرحه محمد التونجي. الجزء الثاني. بيروت: دار الجليل.

الصفدى، صلاح الدين خليل بن أبيك. (١٩٩١م). الوافي بالوفيات. المجلد الثاني. بيروت: دار الكتب العلمية.

ضيف، شوقي. (٢٠٠٧م). تاريخ الأدب العربي. عصر الدول والإمارات. الجزء الخامس. القاهرة: دار المعارف.

عزيز، جاسم. (١٤٠٦ق). الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضى. بيروت: دار الأندلس.

عمران، عبداللطيف. (لاتا). شعر الشريف الرضى ومنطقاته الفكرية. دمشق: دار الينابيع.

الفاخوري، حنا. (١٣٧٨ق). تاريخ الأدب العربي. ترجمة: عبد المحمد آيتي. ط ٤. طهران: طوس.

فروخ، عمر. (١٩٧٩م). تاريخ الأدب العربي. الجزء الثالث. ط ٧. بيروت: دار العلم للملايين.

كحالة، عمر رضا. (١٣٧٦ق). معجم المؤلفين. الجزء الأول. لامك: لانا.

مبارك، زكي. (١٩٣٨م). عبقرية الشريف الرضى. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

متز، آدم. (لاتا). الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري. ترجمة: محمد عبد الهادي أبوريدة.

الجزء الأول. ط ٣. لامك: لانا.

المتنبي، أبو طيب. (٢٠٠٩م). ديوان. راجعه وفهرسه: د. يوسف الشيخ محمد بقاعي. بيروت: دار

الكتاب العرب.

محمد حلو، عبد الفتاح. (١٩٨٦م). الشريف الرضى حياته ودراسة شعره. القسم الثاني. لامك: لانا.

محي الدين، عبدالرزاق. (١٩٧٧م). أدب المرتضى من سيرته وآثاره. ط ١. بغداد: مطبعة المعارف.

نورالدين، حسن جعفر. (١٤١١ق). الشريف الرضى حياته وشعره. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية.